خطبة علو همة السلف في طلب العلم وتفريط الخلف

الشيخ السيد مراد سلامة

الخطبة الأولى

أما بعد: فحياكم الله تعالى وبياكم ويسر الله تعالى لنا ولكم الخير وزادنا من فضله وعلمه إنه ولي ذلك والقادر عليه جل جلاله حديثنا اليوم عن علو همة السلف في طلب العلم وتفريط الخلف) فما هي منزلة العلم وما هو أثره على الفرد والمجتمع؟

اعلم بارك الله فيك: أنك إذا كنت أيها ترغب في سمو القدر ونباهة الذكر وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمس عزا لا تثلمه الليالي والأيام ولا تتحيَّفه الدهور والأعوام، وهيبة بغير سلطان، وغنى بلا مال، ومنعة بغير سلاح، وعلاء من غير عشيرة، وأعوانا بغير أجر، وجندا بلا ديوان وفرض، فعليك بالعلم، فاطلبه في مظانه، تأتك المنافع عفوا، وتلق ما يعتمد منها صفوا، واجتهد في تحصيله ليالي قلائل، ثم تذوق حلاوة الكرامة مدة عمرك، وتمتع بلذة الشرف فيه بقية أيامك، واستبق لنفسك الذكر به بعد وفاتك .. أ.هـ ([1])

واعلم أن العلم جمال لا يخفى ونسب لا يُجف بعيد المرام لا يصاد بالسهام ولا يقسم بالأزلام ولا يري في المنام ولا يورث عن الأعمام ولا يكتب للغلام

يقول أبو بكر الجزائر–رحمه الله –: إن فضل العلم لعظيم وإن شرفه لعال رفيع فكم من وضيع رفعه العلم إلى ومصاف الشرفاء، وكم من حقير نظمه العلم في سلك العظماء، به شرف آدم في الملأ الأعلى وبه فاز أهله بالدرجات العلى، قال الله تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) [المجادلة : ١١] ﴾.

ولو لم يكن العلم أشرف شيء في الحياة لما طلب الله جل جلاله من رسوله أن يسأله المزيد منها في قوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) [طه : ١١٤] ﴾ ([2]) ونور العلم لا يحجبه سبع سماوات والشمس تغيب ليلا والقمر يخفي نهارا ونور العلم لا يغيب ليلا ولا نهارا ، بل هو ، وهو في الليل أكد ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) [المزمل : ٦ ، ٧] ﴾ .

والقمران يفنيان والعلم لا يفني، والقمران ينكسفان والعلم لا ينكسف والقمران تارة يضران وتارة ينفعان، والعلم ينفع ولا يضر بشرطة والقمران في السماء زينة لأهل الأرض ، والعلم في قلب المؤمن وهو في التحت ، ويضيء ما فوقه وما تحته . وبهما ينكشف وجود الخلق ، وبالعلم ينكشف وجود الخالق وضوء هما يقع على الولي والعدو ، والعلم ليس إلا للولي وشعاع الكواكب إلى أسفل وشعاع العلم يصعد إلى العلو والكواكب تطلع من خزانة الفلك والعلم يطلع من خزانة الملك والكواكب علامة والعلم كرامة والكواكب موضع نظر المخلوقين ، والعلم موضع نظر رب العالمين والكواكب نفعها في الدنيا والعلم نفعه في الدنيا والآخرة والشمس تسود الأشياء والعلم يبيضها والشمس تحرق والعلم ينجي ، والقمر يبلي الثياب والعلم يجدد المعارف لأولي الألباب ، و إنما كانوا كالمصابيح في الآخرة لأن الناس يحتاجون إلى العلماء في الموقف في الشفاعة بل وبعد الدخول فينتفع بهم فيها كالمصابيح ، ولذا يقال : أن ذات العلم تكسي نورا ويضيء كالمصباح حقيقة ، ألا تري أن هذه الأمة تدعي غرا محجلين

---

[1] – الحث على طلب العلم –(ص ٤٣)

[2] – العلم والعلماء ص ١٧.

من آثار الوضوء ، فالعالم يتميز على آحاد المؤمنين بأن تصير جنته كلها مضيئة فنعمة العلم أفخر النعم وأجزل القسم ومن آويته فقد أوتي خير كثيرا . أ- هـ)([3])

فالعلم هو أساس التقدم، والرقي بالإنسان، وازدهار الحياة، وإحداث التغيير الإيجابي الذي يحقق للأفراد والمجتمعات السعادة والحياة الكريمة، والعالم اليوم أحوج ما يكون إلى الاستثمار في العلم والمعرفة لمواجهة التحديات العديدة التي يوجهها، فلا سبيل إلى ذلكم إلا بالعلم و الأخذ بأسبابه

فالعلم هو النور في الظلم و الأنيس في الوحدة والوزير عند الحادثة فإن اشتغل القلب به دله على المعبود الحق سبحانه وتعالى فإن القلب له مواطن يجول فيها .

يقول أبن القيم –رحمه الله–في بيان منزلة العلم وأهلة أستشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال سبحانه: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) [آل عمران : ١٨])﴾ وهذا يدل علي فضل العلم وأهله من وجوه .

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

الثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

الثالث: أن في ضمن تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لا يشهد من خلقه إلا العدول ..."([4])

وروي عن علي –رضي الله عنه–قوله العلم أفضل من المال لسبعة أوجه هي:

العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة.

العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص بها.

المال يحتاج إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه.

إذا مات الرجل خلف ماله وراءه والعلم يدخل معه في قبره.

المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن.

جميع الناس محتاجون إلى العالم في أمور دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال.

العلم يقوي صاحبه عند المرور على الصراط والمال يمنعه منه.

وروي عن مصعب بن الزبير قال لابنه: يا بني تعلم العلم فإنه إن يك لك مال كان لك العلم جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك العلم مالا.)([5])

---

[3] – فيض القدير ١ / ١٠٧

[4] – مفتاح دار السعادة جـ ٤٨/١.

[5] –– تاريخ دمشق – (١١ / ١٢٩)

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سلك طريقنا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما أجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه. ([٦])

عن زر ابن جيش إذا جاء فيه أتيت صفوان بن عسال المرادي -رضي الله عنه-فقال ما جاء بك؛ قلت أنبط العلم – أطلبه – قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا مما صنع ([٧]).

علو همة السلف في طلب العلم

هيا أيها الآباء والإخوة الكرام لنقف على صور مشرقة من علو الهمة وقوة إرادة في نيل العلم والترقي في درجاته، فليس الأمر بالسهل ولا بالهين وإنما يحتاج إلى عزيمة وإرادة فولاذية .....

علو همة ابن عباس رضي الله عنهما في طلب العلم

ها هو حبر الأمة وترجمان القران عبد الله ابن عباس يسمو بهمته ويرتقي بعزيمته في مصاف العلماء قال بن عباس رضي الله عنهما: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار: يا فلان هلم فنسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم اليوم كثير فقال: وأعجبا لك يا أبن عباس أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من ترى؟

فتركت ذلك وأقبلت على المسألة فإذا كان يبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح على وجهي التراب فيخرج فيراني فيقول: يا بن عم رسول الله ما جاء بك؟

ألا أرسلت إلى فأتيتك؟ فأقول أنا أحق أن آتيك ... فأسأله عن الحديث قال: فبقي الرجل حتى رآني وقد أجتمع الناس على فقال: كان هذا الفتي أعقل مني. ([٨])

علو همة أبي هريرة رضي الله عنه:

وها هو سيد من سادت الصحابة وبحر من بحور العلم أوقف نفسه منذ أن أسلم على طلبه ورضي من الدنيا بأقل قليل ولزم النبي صلى الله عليه وسلم فكان الصحابة يشتغلون بأمور الدنيا وأبو هريرة يربط على بطنه الحجر والحجرين من الجوع حرصا منه على ألا يفوته شيء من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حتى شهد له بذلك النبي صلى الله عليه وسلم

---

٦ – أخرجه أحمد (٢/٢٥٢ ، رقم ٧٤٢١) ، ومسلم (٤/٢٠٧٤ ، رقم ٢٦٩٩) .

[٧] – أحمد (٤/٢٣٩، رقم ١٨١١٨) ، وابن ماجه (١/٨٢ ، رقم ٢٢٦) ، والحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب ح ٨٥

[٨] – أخرجه الدارمي في سننه، برقم ٥٧٠ /١ ١٥٠–١٥١، والخطيب في الجامع ٢١٩، ١/ ٢٣٥–٢٣٦، وانظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٠، ورجاله ثقاتوأحمد في الفضائل ١٩٢٥ وإسناده صحيح.

رضي الله عنه قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألني أصحابك؛ قلت أسألك أن تعلمني مما علمك الله فنزع نمرة كانت على ظهري، فبسطها بيني وبينه حتى كأني أنظر إلى النمل يدب عليها فحدثني حتى إذا استوعبت حديثه قال: أجمعها فصرها إليك " . فأصبحت لا أسقط حرفا مما حدثتني.([9])

علو همة أبي حاتم وأبنه عبد الرحمن رحمهما الله.

وذلك بحر لا ساحل له في العلم و المعرفة بالسنة المشرفة و احد الحصون التي صدت الأعادي عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم ابنه أبو حاتم الرازي ما صول إلى تلك المنزلة إلا على جسر من التعب و الجد و الاجتهاد و علو الهمة ذكر الحافظ الذهبي في ترجمة أبي حاتم الرازي محمد بن إدريس المتوفى سنة ٢٧٧هـ أن أبا حاتم قال : قال لي أبو زرعة يعني الرازي ما رأيت أحرص على طلب الحديث منك فقلت له : أن عبد الرحمن أبني لحريص ، فقال : من أشبه أبا فما ظلم . قال الرمام وهو أحمد بن على أحد رجال إسناد الخبر – فسأل عبد الرحمن عن اتفاق كثرة السماع له وسؤالا ته لأبيه فقال : ربما كان يأكل وأقرا عليه ، ويمشي وأقرا عليه ، ويدخل الخلاء وأقرا عليه ، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرا عليه .([10])

علو همة مكحول رحمه الله –:

وها هو مكحول رحمه الله –يقول رحمه الله: عالم أهل الشام، يكنى أبا عبد الله، وقيل: أبو أيوب، وقيل: أبو مسلم الدمشقي الفقيه، وداره بطرف سوق الأحد يقول عن نفسه – رحمه الله –عتقت بمصر فلم أدع بها علما إلا حويته، فيما أري ثم أتيت العراق، ثم المدينة فلم أدع بها علما إلا حويت عليه ثم أتيت الشام فغربلتها.) ([11])

علو همة عروة بن الزبير بن العوام –رحمه الله–.

من سادات التابعين، أحد الفقهاء السبعة في المدينة، عالما صالحا، قال عمر بن عبد العزيز: ما أحد اعلم من عروة بن الزبير، قال الزهري: عروة بحر لا تكدره الدلاء.

عن هشام عن أبيه – عروة – أنه كان يقول لنا ونحن شباب ما لكم لا تعلمون، إن تكونوا صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار قوم، وما خير الشيخ أن يكون شيخا وهو جاهل، لقد رأيتني قبل موت عائشة بأربع حجج وأنا أقول: لو ماتت اليوم ما ندمت على حديث عندها إلا وقد وعيته، ولقد كان يبلغني عن الصحابي الحديث فآتيه فأجده قد قال، فأجلس على بابه، ثم أسأل عنه.([12])

علو همة مالك بن أنس –رحمه الله–.

---

[9] – جاله ثقات، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١ / ٣٨١، وهو في تاريخ ابن عساكر ١٩ / ١١٣ / ٢، والنمرة: شملة فيها خطوط بيض وسود.

[10] – تاريخ دمشق –(٥٢ / ١٢) تهذيب الكمال – (٢٤ / ٣٨٨.

[11] – تاريخ دمشق –(٦٠ / ٢٠٥) تذكرة الحفاظ وذيوله – (١ / ٨٢) تهذيب الكمال – (٢٨ / ٤٧٠) مغاني الأخيار – (٥ / ٨٦.

[12] – سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٤٩. تهذيب الكمال –(٢٠ / ١٧) تاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (٦ / ٤٢٥)

طلب الأمام مالك العلم وهو ابن بضع عشرة سنة وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهي حي شاب طري ، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور وما بعد ذلك وازدحموا عليه في خلافة الرشيد وإلى أن مات .([١٣])

استغفر الله لي ولكم وللمسلمين والمسلمات فاستغفروه وتوبوا إليه إن ربي رحيم ودود.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

أَمَّا بَعْدُ:

تفريط الخلف:

فإذا تأملنا أحوال الخلف وما هم عليه لوجدنا البون شاسعا والفرق واضحا بين السلف والخلف، فلو دخلت مسجد جماعة وسألت كثيرا من الحاضرين عن نواقض الوضوء أو سننه أو آدابه لما وجدت جوابا شافيا، ولو نظرت إلى مدارسنا وجامعتنا لرأيت طلابا للدينا لا طلابا للعلم بل إن كثيرا منهم لا يحسن قراءة سورة الفاتحة التي لا تصح الصلاة إلا بها

والسبب في ذلك يرجع إلى غفلة هؤلاء عن أمر دينهم وسنة نبيهم وكذلك تلك الهمم التي لا هم لها إلا إشباع رغبتها من اللهو اللعب وإضاعة الأوقات في سماع الأفلام والمسلسلات والنوم حتى الصباح.

واعلم علمني الله وإياك: أن ضعيف الهمة ضعيف الإرادة ضعيف العزم في طلب ما ينفعه ويرفع من شأنه والسبب الذي يجعل كثيرا من الناس يطلبون الأدنى من الأمور ويقصدون ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا فساد العلم وكثرة الجهل وضعف الهمة، فكلما صح العلم انتفى الجهل وصحت العزيمة وعظمت الهمة طلب الإنسان معالي الأمور فبعض الناس همة لقمة يسد بها جوعته، وشربة روية تذهب ظمأه وفي مثل هؤلاء يقول حاتم الطائي

لحى الله صعلوكاً مناهُ وهمه من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما

ويرى الخمص تعذيبا وأن يلقى شبعه يبيت قلبه من قلة الهم مبهما

فيا أحفاد السلف عليكم بطريقهم والسير على دربهم والجد في طلب العلم فالعلم هو تلك الفريضة الغائبة التي غابت عن حياة المسلمين ويتساهلوا في شأنها.... هيا لننفض الوهن والكسل فقد فات زمن الراحة وجاء زمن السعي الحثيث للعمل للأمة لإخراجها من تيه الغفلة ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم.

قال عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: لا ينال العلم براحة البدن)([١٤])

وفي عصر كثرة فيه المعارف وقل العارف فالأسباب التي تهيئ للمسلم نيل العلم الشرعة دون مشقة ولا عناء كثيرة وعلى الرغم من رفاهية الوسائل إلا أنك ترى ضعف الهمة وقلة السائل عن أمر دينه، في زمن أصبح المسلم يستطيع أن يسأل أي عالم على وجه الأرض وهو جالس على سريره من خلال وسائل الاتصال الحديثة إلا أنك ترى ميل إلى الراحة والدعة وانغماسا في الشهوات والاشتغال بالمحرمات !!

---

[١٣] – المصدر السابق جـ ٧ ص ٣٦٥

[١٤] – وقد رواه مسلم في صحيحه ١٧٥ ١/ ٤٢٨،

فإن سألته عن أمر من أمور اللهو مثل الكرة تجده مجودا لكل صغيرة و كبيرة فيها و كذا أمور الدنيا و أضحى حال كثير منهم ما اخبر به النبي –صلى الله عليه و سلم– (إن الله يبغض كل جعظرى جواظ سخاب في الأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بالدنيا جاهل بالآخرة ([١٥]))

الدعاء.....

[١٥] – جامع الأحاديث –(٨ / ٢٣٠)أخرجه البيهقي (١٠/١٩٤ ، رقم ٢٠٥٩٣) . قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ١٨٧٨ في صحيح الجامع